

التعاون المتوسطي بمقاربة ثقافية

أ/ أنيس طاية

باحث دكتوراه، جامعة الجزائر 03

anissetaya@yahoo.com

الملخص:

المتوسط مركب جيوسياسي فريد متميز ونوعي بما يجمعه من محددات وخصائص ساهمت في حركية الحياة بشكل عميق وهي لا تزال احد أهم عناصر التقارب ومجال ومشروع مشترك ورهان يمكن الاعتماد عليه، كما يعتبر الإرث الثقافي المتوسطي الذي شكله الجوار والتاريخ قاعدة انطلاق يمكن من خلالها التأسيس لعلاقات تعاونية تضامنية تهدف إلى إشاعة قيم التسامح والاعتدال والتعايش، وإلى إحداث التطور والتنمية العلمية والإنسانية التي من شأنها جعل المتوسط منطقة رخاء وازدهار وتطور.

تعتبر معالجة موضوع التعاون بين دول ضفتي المتوسط على قدر كبير من الأهمية لما يثيره من الإشكاليات العديدة في الآن ذاته، لسوء فهم واقع العلاقات بين دول الضفتين وطبيعة التفاعلات الحاصلة بينها بتسليط الضوء على العديد من المشكلات المغفلة أو التي يتم غض الطرف عنها، على غرار مشكلة سوء الإدراك الثقافي المتبادل بين دول الضفتين، الذي يعتبر متغيراً أساسياً في فهم ومعالجة العديد من الإشكاليات المتعلقة بجدوى أو عدم فعالية سياسات التعاون المنشود، بينما يظهر العلاج في تقديم مجموعة من الآليات بالاعتماد على المقاربة الثقافية التي يمكن من خلالها تأسيس تعاون حقيقي وفعال بين الطرفين المتوسطيين.

الكلمات المفتاحية: التعاون، الثقافة، المتوسط.

Abstract :

The Mediterranean is a unique geopolitical complex with its unique characteristics that have contributed to the dynamics of life. It is still one of the most important elements of rapprochement, area, joint venture and reliable bet. The Mediterranean cultural heritage, which has been shaped by proximity and history, is a starting point for establishing collaborative cooperative relations. To promote the values of tolerance, moderation and coexistence and to bring about the development and scientific and human development that will make the Mediterranean a prosperous, prosperous and developing region.

Addressing the issue of cooperation between the countries of the two shores of the Mediterranean is of great importance because of the many problems at the same time, the misunderstanding of the reality of the relations between the countries of the two shores and the nature of the interactions between them by highlighting many of the problems overlooked or overlooked, The mutual cultural misunderstandings between the two countries of the two shores, which is a fundamental variable in understanding and addressing many of the problems related to the usefulness or ineffectiveness of the desired cooperation policies, while the treatment shows a range of mechanisms based on the cultural approach through which the right cooperation can be established Effective and effective between the Mediterranean parties .

مقدمة:

طبع تاريخ المتوسط بعدد السياسات والاستراتيجيات والرؤى والقراءات، كما شهدت الفترة المعاصرة إعادة التنظير للتنظيم والترتيب تصب في موضوع رأب الصدوع ودفع الجهود بين التيارات المختلفة لإعادة بناء الثقة والحوار، على اعتبار تنامي التحديات وارتفاع مستويات التنافس والتأثيرات العميقة لمخرجات التغيرات الحاصلة على البيئة الدولية من البيئة السياسية إلى البيئة المناخية، فالجسد المتوسطي لم يعد في أولوية الحاجة للعقار المعالج بل الأولوية الآن في تنظيف الأوعية من ترسبات المبادرات المسمومة والشراكات لانتهازية التي تركز لعلاقات المركز والمحيط.

يعد الحوض المتوسطي بما يجمعه ويسجله من أكثر المناطق تعقيدا وأكبرها قابلية للصراع كما يبقى حاملا في نفس الوقت لإمكانية التعاون والشراكة لاعتبار التاريخ والوقائع والخصوصيات، فسعت العديد من الرؤى بالاعتماد على تميز المنطقة للبحث عبر مقاربات عديدة على معامل ومحدد ووسيط مثالي يضمن مدى للسلم والاستقرار كما تعرفه كل المبادرات المتوسطية. حيوية ومرونة المجالات الثقافية والعلمية بالاستناد إلى طبيعتها وجاذبيتها إضافة إلى مستوى وكفاءة المختصين الذين يمثلون النخب الثقافية والعلمية، يمكن أن تؤسس لتوظيف إيجابي لمحددات التعاون بتسليط الضوء على الجوانب المختلفة للثقافات وإعطاء صورة حقيقية لها من خلال رفع مستوى التبادل.

غير أن ذلك لا يبدو كما نتصوره من الوهلة الأولى فإيقاظ القضايا الخلافية خاصة الثقافية الهوياتية من خلال إعادة بعثها في الخطاب السياسي والإعلامي والحركات السلبية للتكنولوجيا المعلوماتية، من شأنه التكريس لسوء الإدراك الذي ينعكس على جو التعاون ليس على المستويين العلمي والثقافي فحسب وإنما يمتد إلى جميع المجالات الأخرى.

نستهل دراستنا بتعداد وتحليل خصوصيات المنطقة المتوسطية ثم إلى توظيفها في رصد القراءات والرؤى المختلفة لفهم ميلان المنطقة المتذبذبة بين الصراع والتوافق ومنها إلى محاولة تحرير الوصفة المناسبة لدفع التعاون بين مختلف الواجهات عبر الاعتماد على المحدد الثقافي المؤهل والذي يلقي الإجماع ويمتاز بالمرونة وقابلية التفعيل.

الإشكالية:

يمثل المشروع المتوسطي في بعده الثقافي موضوع نقاش هام فيما يتعلق بإمكانية تأثيره في مسار علاقات الوضع القائم بين دول ضفتي المتوسط، بالنظر إلى حجم التحديات القائمة التي تغذيها حالات سوء الإدراك المتشعبة بالعديد من رواسب الماضي، لذا هل تدفع المقاربة الثقافية التعاون المتوسطي؟

الفرضية الأولى: بقدر ما كان التعاون بين دول ضفتي المتوسط مبنيا على قيم احترام التنوع والخصوصية لكل طرف، أسس ذلك لتهيئة الأرضيات وتنقية الأجواء وبناء جسور جديدة للحوار والتبادل الفعال.

الفرضية الثانية: كلما تواجد حوار وتعاون ثقافي على جانبي المتوسط بشكل سليم وبناء شكل ذلك عنصرا أساسيا للتقارب والتفاهم وتحسين الإدراك المتبادل بين شعوب المنطقة.

تتمثل المقاربات النظرية المعتمدة في هذا البحث فيما يلي:

المدرسة البنائية: لتحديد دور العوامل الثقافية في صياغة سياسات التعاون والتبادل بين الدول.

المقاربة الثقافية الحضارية: لدفع الحوار الثقافي المستند على قيم احترام الخصوصية، كآليات ناجعة في تحقيق التعاون الحقيقي والفعال.

مقاربة جون غالتونغ: حول مفهوم العنف الثقافي، في فرض أحد الأطراف لإرادته من أجل مشروعية تصرفاته على حساب الطرف الآخر، مما يتسبب في خلق العنف البنيوي ثم إلى عنف مباشر.

مقاربة مستوحاة من أفكار مالك بن نبي: حول مشكلات الحضارة والتبعية الثقافية، كمقاربة نقدية تعكس متطلبات دول الجنوب من التعاون في المجال الثقافي.

مقاربة صامويل هنغتنغتون حول الصدام الحضاري: تفيدنا في فهم الممارسات والسياسات المتبناة من طرف دول الضفة الشمالية تجاه جيرانها الجنوبيين لاسيما في الجوانب الثقافية والحضارية.

أولا: محددات المنطقة المتوسطية

إن دراسة أي شكل من أشكال التفاعلات ينبغي أن تكون مسبقة بالوقوف عند أهم المحددات التي تجعل الأفكار والمبادرات في مكانها الصحيح لأفضل نتائج ممكنة بقراءة المتوسط في بيئته المتوسطية كالاتي:

1-الدلالات الإنسانية لجغرافيا المتوسط

ليس القصد من التعرّيج على الجغرافيا التعرف على التضاريس والبحر والمناخ فقط، بل إعادة اكتشاف تلك العناصر كمحددات تحقن كأدوات تحليل ومقارنة بغية تنظيم وتصويب الرؤى والقراءات، فيقول إيف لأكوست "أن منطقة المتوسط هي بطريقة ما مجالا ممتازا لكي يتمرن كل مواطن على التفكير الجيوسياسي بشكل عام، لأن دراستها تفرض عليه أن يأخذ بعين الاعتبار توضع موروثات تاريخية شديدة التنوع، وأن يوالف بين صراع القوى التي تختلف أحجامها إلى حد كبير، بدءا من النزاعات المحلية حتى الصراعات القومية،.." (1).

أ: الجغرافيا البرية : يتنفس المتوسط الهواء البارد والدافئ ، ففي الصيف تهب الرياح الحارة من الصحراء الكبرى فتعم الحرارة والصفاء كل المنطقة بينما في الشتاء تهب الرياح الباردة الأطلسية والجنوب قطبية الباردة فتساقط الثلوج والأمطار وهذا ما يلخص المناخ المتوسطي، وهو ما ساعد على ازدهار الحياة والاستيطان في المنطقة.

أما التضاريس فتتناثر خلالها الجبال في كل مكان، غير أنها تتراص وتصطف في جل السواحل مشكلة رسم بيضاوي شبه مغلق عند استثناء الجزء الرابط بين جنوبي لبنان وتونس لذا توصف الجبال في المتوسط على أنها مراكز حراسة وقلاع صد، ووقود لمحركات ومسارات التاريخ، حيث أنها أدت دورا مفصليا في توقيف الحملات الاستعمارية وجهود التغلغل لقوى متوسطة وغير متوسطة، كذلك الأمر للحملات الفكرية والعقادية، فسكان الجبال من الأقليات أقل اختلاطا وأكثر انعزالية وانغلاقا وانطوائية ومن أشد العنصريين في الانكفاء على الهوية والعقيدة والعادات، حيث يقول فرناند بروديل: "الديانات والحضارات قيم غير ثابتة وغير راسخة في الجبال، حيث تتشكل جغرافيا حضارية ودينية خاصة" (2).

لكن هذه الحقيقة ليست مطلقة فحركية المتوسط وقوته القاهرة استطاعت الوصول إلى كل مكونات القدر وازداحة كل الإضافات ومخرجة كل النكهات، فتم تجاوز كل الحواجز بالإلحاح المتواصل، كما أن عديد المناطق الجبلية رفعت حواجزها تحت تأثير شح الموارد ونقص الغذاء وتوجه قاطنوها إلى المدن والسهول، ليجدوا بدورهم

(1) إيف لأكوست، الجغرافيا السياسية للمتوسط، ترجمة: زهيدة درويش جبور، الطبعة الأولى، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2010)، ص.26.

(2) فرناند بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، ترجمة: مروان أبي سمر، الطبعة الأولى، (بيروت: دار المنتخب العربي، 1993)، ص.26.

حواجز ثقافية مجتمعية، حيث ورغم حاجة المدينة والسهول إليهم بقوا "جبليين" فيقول برودال: "الجبال مصنع الرجال في خدمة الآخرين"⁽¹⁾.

تترجع الهضاب على مساحات شاسعة وراء الجبال وعلى حدود الصحراء جنوبا وشرقا، وهي نادرة في الشمال، وتعتبر محطات راحة وطرق انتقال ومواصلات للقوافل التجارية والرعوية، وتمتاز بالاستقرار والتوازن، لذا نجد نشأت العديد من المدن العريقة لحمايتها من الغزو الآتي من البحر والجوع الآتي من الصحراء.

تمتد السهول شمالا بشكل واسع، أما في الجنوب فهي ضيقة، وتعد مصدرا رئيسيا للغذاء غير أنها شهدت أنظمة اجتماعية استبدادية (كبار الملاك، الإقطاع، العبودية..)، أما الصحراء حدود المتوسط الطبيعية في الشرق والجنوب، بيئتها قاحلة وقليلة الموارد، تحوي أنظمة اجتماعية فريدة وحياة قبلية غير مستقرة تعتمد على التنقل والترحال.

ب: الجغرافيا البحرية: تتشكل السواحل شمالا من أشباه جزر تنتهي بجزر فنجد: شبه الجزيرة الأيبيرية التي تنتهي بجزر البليار، وشبه الجزيرة الإيطالية التي تتبعها صقلية وسردينيا، وكذلك شبه الجزيرة الهيلينية وشبه الجزيرة التركية اللتان تشتركان في أرخبيل بحر إيجه، أما جنوبا فالسواحل أكثر صفاء من المغرب إلى سوريا،

لقد شكلت هذه الظواهر الجيوسياسية البحرية عوالم منفردة تتمتع باستقلال ذاتي بالمفهوم الحالي وبنيات فرعية بتاريخ وأحداث وارث شبه مستقل عن الوحدة الرئيسة المتوسطية وهي مشهد وأرشيف فرعي حافظ للخصوصيات، الحضارة اليونانية بقيت في أرخبيلها لمدة طويلة في ظل الدولة المدينة، كما تعد المضائق في المتوسط بوابات ونقاط خناق استراتيجي وهي علامة متوسطية مسجلة فمن يسيطر على المضيق يسيطر على البحر ومن يسيطر على البحر يسيطر على اليابس.

الجزر في المتوسط التي هي بطاقة الذاكرة المتوسطية، ضرورية للسفن ومرفأ وملجأ آمن ومكان للتموين والراحة كما تعد وسط سكاني متماسك محافظ ومحطات استقبال للثقافات والحضارات ونقاط تقاطع دائم.

⁽¹⁾ نفس المرجع، ص. 27.

2-الدلالات التاريخية والحضارية

من الرغبة القول-ونحن من سكان المتوسط-أن جل تاريخ العالم هو تاريخ المتوسط وأن جل تاريخ المتوسط هو تاريخ الحضارة فيه.

غير أنه لا تبدو ثنائية حضارة-تاريخ بالسهولة بما كان لاقتصار على الرصد الحضاري والسرد التاريخي أي وفيما معناه وعند تناول موضوع التاريخ الحضاري للمتوسط يكفي إقامة حوصلة للإحداث الهامة والمحطات الحاسمة حسب الزمان من جهة وتعداد الحضارات وفحص الثقافات حسب المكان من جهة أخرى، الأمر في الواقع ليس بهذه السهولة فرغم توفر وتعدد المراجع والوثائق وتنوعها تنوع المنطقة المتوسطية فإن الأمر في غاية الصعوبة بما كان خاصة عند التعرض للنقاط الرمادية في مساحات ومناطق التداخل والتنافر، التقاطع والتلاقي، التكامل والتنازع، ليس فقط للحضارات المختلفة، بل كذلك للأفكار والمعتقدات وحتى للثقافات والعلوم.

يتبين بروديل الصعوبة إلى ذلك في متوسطه وعالمه المتوسطي إذ يقول: "تبين أن يلزم للقيام بإحصاء هذه المناجم الثمينة والتنقيب فيها(أي الوثائق والأرشيفات) عشرين عمر مثل عمري أو عشرين باحثا مثلي يخصصون لها أعمارهم كلها"⁽¹⁾.

لن نقوم بتحديد مكان قيام الحضارة الفرعونية أو كنية الكتابة التي اكتشفتها أو التطرق لتعريف المنطق عند اليونانيين القدامى أو مقدار اتساع الحضارة الرومانية وفصائل قيم الحضارة الإسلامية أو ورثة لاسكندر المقدوني وأسماء من دفن الرجل المريض، بل سنحدد ملامح الشخصية الحضارية المتوسطية عبر التاريخ من ميلادها ونموها إلى تطورها وتأثيرها وتأثيرها في مجالها الجيوحضاري وكذا حالها اليوم لأن ذلك يساعدنا بصورة كافية وجديدة قد تكون أكثر فاعلية من أي تصور سابق للتعامل مع موضوع التخاطب ثم السلام وأخيرا التنمية عبر تحليل الأفكار والأفعال وردود الأفعال التي رصدتها وطرقتها الشواهد الحقيقية للتاريخ أي الحضارات بطرح القراءات الآتية:

أ: المتوسط مصنع للحضارات: يشبه بول فاليري المتوسط على انه آلة لصناعة الحضارات وهو وصف دقيق لأهم ميزات المنطقة المتوسطية المتمثلة في الانتشار الكثيف للحضارات على مختلف الواجهات، فطبعت المنطقة بكثير من الحضارات والثقافات وعديد أنواع الحياة القبلية والتجمعات البشرية وبثلاث ديانات توحيد

⁽¹⁾ فرناند برودال، مرجع سبق ذكره، ص.8.

سماوية وبمعتقدات متفرقة وحتى بخرافات معقدة ومجهولة غير أنها نمت وانتشرت وازدهرت تاركتنا عديد الأسئلة لهذا فالمنطقة بحق ذاكرة للبشرية الأولى ومستوى ثقافتها وروحها الفكرية وعقيدتها الدينية وقيمتها الحضارية. وهو نفس الشيء الذي ذهب إليه بروديل إذ صنع صورة للمجال المتوسطي على أنه ملتقى للحضارات ووحدة متناسقة ومتشاركة الوجود الثقافي مiale للحركية والتبادل⁽¹⁾.

ب: الدين والثقافة: الدين والثقافة قوتان قاهرتان ومحوريتان في المنظومة القيمية الحضارية وهما أكبر ما فيها تميزا وتفردا ومقاومة وموضوع الدين والثقافة كانا حاسمان في قيام أو سقوط أو تغير الحضارة والمتوسط يحصيها بعناية، فالرفض الديني واللا ديني ولانكفاء الهوياتي الثقافي وكذا تلاطم المعتقدات وتمايز الخصوصيات ليس فقط عوامل احتكاك أو تصادم بشكل دائم ومطرّد تقف عليه مستقبل المنطقة المتوسطية والعالم كما يصوره هانتينغتون بل كذلك عامل محفز للنقل وللحفظ الحضاري.

تنتشر الألوان الثقافية في المتوسط بشكل مزهر ومتمايز لاعتبارات عديدة، فالمنطقة منبت البشرية الأولى كما أن مختلف فروع السلالات البشرية نمت وتفرعت فيها بشكل مطرد من السلالات السامية والعربية والعبرانية وظلت تتفرع بشكل متمدد ومتواصل حتى وصلت الأمر اليوم إلى غاية اشتغال الدولة الوطنية الواحدة عديد القوميات والأعراق تتميز من حيث اللغة والدين والعرق والتقاليد والعادات.

رغم الاختلافات الموجودة من المهم الإشارة إلى أن المتوسط لم يقف حاجزا لم يتم اختراقه لان الناس لم يابهو بالحدود والدول والعقائد والثقافات فقط بل و بالأساس بضروريات الحياة والعيش عبر الملاحاة والتجارة والهجرة التي كان المتوسط يضمونها بصورة فعالة ودائمة.

غير أن الأمر لم يخلوا من العنف فمثلا الكاثوليك الأسبان اجتاحتهم الأندلس والمسلمون الأتراك سيطروا على البلقان لذا فان حادثتي سقوط بيزنطة وسقوط غرناطة يتساويان من حيث شدة الصدمة في الفكر والعقل والتاريخ الإسلامي كما في الفكر والعقل والتاريخ المسيحي على حد سواء.

ج: المقايضة الحضارية: يعبر بروديل عن التاريخي الحضاري للمتوسط بالقول: "ليست حضارة لكن حضارات متموضعة الواحدة على الأخرى"⁽²⁾، ويشير المغزى إلى أن كل حضارة متوسطة كان لها الحق المشروع

¹⁾ Guillaume Almérás et Cécile Jolly, "Méditerranée 2030 ; panorama et enjeu géostratégiques", institut de prospective économique dans le monde méditerranéen, avril 2009, p.42.

²⁾ إيف لاکوست، مرجع سبق ذكره، ص.25.

والطبيعي في أن تراث الحضارة ليس فقط التي قبلها بل حتى التي افلت منذ زمن أو التي تعايشها جنب إلى جنب، كما صنع صورة للمجال المتوسطي على انه ملتقى للحضارات ووحدة متناسقة ومتشاركة الوجود الثقافي مبالغة للحركية والتبادل⁽¹⁾.

حيث تظهر الحركية والتبادل الحضاري في الإرث المتنوع والمتداخل فنجده العمارة الرومانية والبيزنطية في الجزائر وسوريا ونجد الطابع الإسلامي في اسبانيا والبرتغال والنموذج العمراني للجزر اليونانية في كل الجزر المتوسطية والطابع العثماني في البلقان والمدن الأوروبية في إفريقيا وأهرامات الجيزة المصرية في باريس الفرنسية واللون الاورجواني الفينيقي اللبناني في قرطاج التونسية.

ثانيا: عناصر التقارب والتباعد في المتوسط

في هذا الصدد يمكن الاعتماد على مقاربتين، تتجه إحداهما إلى التركيز على الطبيعة التصادمية النزاعية بين شمال المتوسط وجنوبه عبر رصد نقاط الاختلاف والتباين والتركيز على الشواهد التاريخية للحالات النزاعية التي طبعت فترات زمنية طويلة، بينما تذهب الأخرى لمنح الأهمية للنمط التعاوني لهذه العلاقات عبر تسليط الضوء على نقاط التوافق والانسجام، والاستناد إلى سياسات ومبادرات التعاون في هذا المجال والتفاؤل بخصوص قدرتها على إحداث قطيعة مع الماضي الصراعي.

1- الثنائيات المتناقضة: يبدو أن تصنيف ثنائية شمال- جنوب -ورغم دلالاته الجغرافية- ينسجم إلى حد كبير مع العديد من الثنائيات المتضادة النوعية المميزة و الممايزة للمنطقة المتوسطية سواء من الناحية البينية أو مقارنة بأقاليم خارجية فتميز:

أ- تقدم / تخلف: يوجد تباين كبير في مستويات التطور الاقتصادي والاجتماعي بين دول الضفة الشمالية ومنطقة جنوب وشرق المتوسط، حيث تمثل مشاكل التنمية وتدني مستويات المعيشة وارتفاع معدلات الفقر والبطالة وتزايد الطلب على التشغيل، كبرى انشغالات هذه الأخيرة، بينما تهتم سابقتهما بمشاكل تحفيز معدلات النمو الاقتصادي خاصة خلال الأزمات، وسبل ضمان مستويات معينة من الرفاه الاجتماعي حيث تمتاز النظم

¹⁾ Guillaume Alméras et Cécile Jolly, op.cit, p.230.

الاقتصادية بمستويات جد عالية من الكفاءة والقدرة على معالجة الأزمات، وتمثل مؤشرات الناتج الداخلي الإجمالي للفرد والقدرة الشرائية، إحدى أهم الشواهد الإمبريقية المؤكدة لهذا الطرح.

جدول رقم 03: مقارنة تطورات الناتج الداخلي الإجمالي لدول المنطقة المتوسطية

2015	2000	1990	1970	1950	
الناتج الداخلي الإجمالي للفرد (دولار)					
18704	18445	15433	9276	3683	فرنسا، إيطاليا، إسبانيا، البرتغال
6690	5214	4390	2758	1452	جنوب وشرق المتوسط
معدلات نمو الناتج الداخلي الإجمالي للفرد (%)					
-0,45	1.78	2.14	5.07		فرنسا، إيطاليا، إسبانيا، البرتغال
0.25	1.72	0.74	3.34		جنوب وشرق المتوسط

المصدر: بالتصرف عن:

Vittorio Daniele And Paola Malanima, "Trends in mediterranean inequalities 1950-2015", University Magna Graecia of er 78324, april catanzaro, **working paper**, 2016, p.5.

تتيح مقارنة تطورات الناتج الداخلي الإجمالي للدول المتوسطية تقديم الملاحظتين الآتيتين:

-تجاوز حجم الناتج الداخلي الإجمالي لدول منطقة غرب أوروبا الأربع: فرنسا، إيطاليا، إسبانيا والبرتغال سنة 1950، نظيره في دول منطقة جنوب المتوسط مجتمعة ثلاث مرات، واستمر بنفس الوتيرة سنوات: السبعينات والثمانينات والتسعينات وصولاً إلى سنة 2015.

-رغم تسجيل معدل نمو ناتج داخلي إجمالي سلبي في دول غرب أوروبا سنة 2015- لعوامل مرتبطة بالأزمة الاقتصادية المالية العالمية- مقابل معدل نمو إيجابي في منطقة جنوب وشرق المتوسط لاتزال الفجوة كبيرة بين المنطقتين.

ب: استغلال/تبعية: تعكس صور العلاقات الثنائية بين دول الضفتين الشمالية والجنوبية للمتوسط نمط هيمنيا بامتياز، حيث تتميز هذه العلاقات بعدم التكافؤ السياسي وغياب التوازن الاقتصادي، حيث يساوي عائد الدخل الفردي في دول جنوب المتوسط 1/10 من عائد الدخل الفردي في دول الضفة الشمالية، حيث لم يحدث في تاريخ الاقتصاد الدولي حدوث شكل من أشكال التكامل الاقتصادي بين منطقتين بهذا الفارق في

التطور الاقتصادي، حيث تمثل الديناميكية التجارية المدعومة بمعدل نمو مرتفع والتطور المعترف للتبادل والاستثمار شروطاً أساسية لخلق مجال للتعاون الاقتصادي.

في نفس السياق تعتبر منطقة المغرب العربي الأقل استيعاباً للاستثمار الخارجي في العالم، حيث تلقت إزاء مشروع (MEDA) مبلغ 6,106 مليون دولار، بينما تلقت الدول الإفريقية 56000 مليون دولار، أمريكا اللاتينية 11000 مليون دولار وجنوب آسيا 88,603 مليون دولار من الاستثمار الأوروبي،⁽¹⁾ كما تعتبر دول جنوب المتوسط - باستثناء إسرائيل - أسواقاً مفتوحة للصادرات الأوروبية، حيث تؤثر المبادلات التجارية الحاصلة بين الضفتين على عدم التوازن.

ج: ديمقراطية/لا ديمقراطية: تتميز الأنظمة السياسية لدول الضفة الشمالية من المتوسط بمستويات متقدمة من الديمقراطية والحوكمة والانفتاح السياسي، والسماح بالتعددية واحترام الحريات وحقوق الإنسان، بينما تقدم النظم السياسية جنوب متوسطة - باستثناء إسرائيل - صورة معاكسة لسابقتها، حيث تشترك الأنظمة السياسية لهذه الدول في جملة من الخصائص، أهمها: الانغلاق واحتكار السلطة، تقييد الحريات السياسية، عدم احترام حقوق الإنسان، أزمات المراحل الانتقالية، الخبرة الاستعمارية والتبعية، محدودية القدرة على توزيع الموارد⁽²⁾.. وغيرها من الخصائص التي نلخصها في الجدول الآتي:

¹⁾ Mohieddine Hadri, "La Méditerranée et l'avenir du dialogue Nord -Sud. comité Méditerranée", Bruxelles, 27-28 novembre 2008, p.17.

⁽²⁾ علي الدين هلال ونيفين مسعد، النظم السياسية العربية؛ قضايا الاستمرار والتغيير، (القاهرة: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000)، ص. 17-334.

جدول رقم 5: مقارنة النظم السياسية لدول المتوسط

متغيرات المقارنة	دول جنوب وشرق المتوسط	دول غرب أوروبا
مكونات النظام السياسي	الحكومة	حكومة، أحزاب سياسية، منظمات مجتمع مدني، قطاع خاص،...
التعددية السياسية	مقيدة أو محظورة	مضمونة
الشرعية	أزمات شرعية	شرعية مكتسبة
درجة الانفتاح	نظم مغلقة لا تسمح بتغيير هيكل النظام	نظم مفتوحة ومرنة
الحريات وحقوق الإنسان	منتهكة أو مقموعة	محترمة ومضمونة
طبيعة الأنظمة	غير ديمقراطية، غير مستقرة، استبدادية أو في مراحل انتقالية مضطربة	ديمقراطيات، حوكمية، مستقرة، ذات تقاليد سياسية راسخة
الوظائف	محدودية القدرة على توزيع الموارد	كفاءة وفعالية في توزيع الموارد

المصدر: إعداد الطالب.

د: شيخوخة/شباب: تعتبر مسألة النمو الديمغرافي في المجال المتوسطي على قدر كبير من الأهمية لارتباطها المباشر بمشاكل التنمية والنمو الاقتصاديين، مشاكل الهجرة، وتأثيرها على مدخلات ومخرجات سوق العمالة، الإنتاجية...، فنميز:

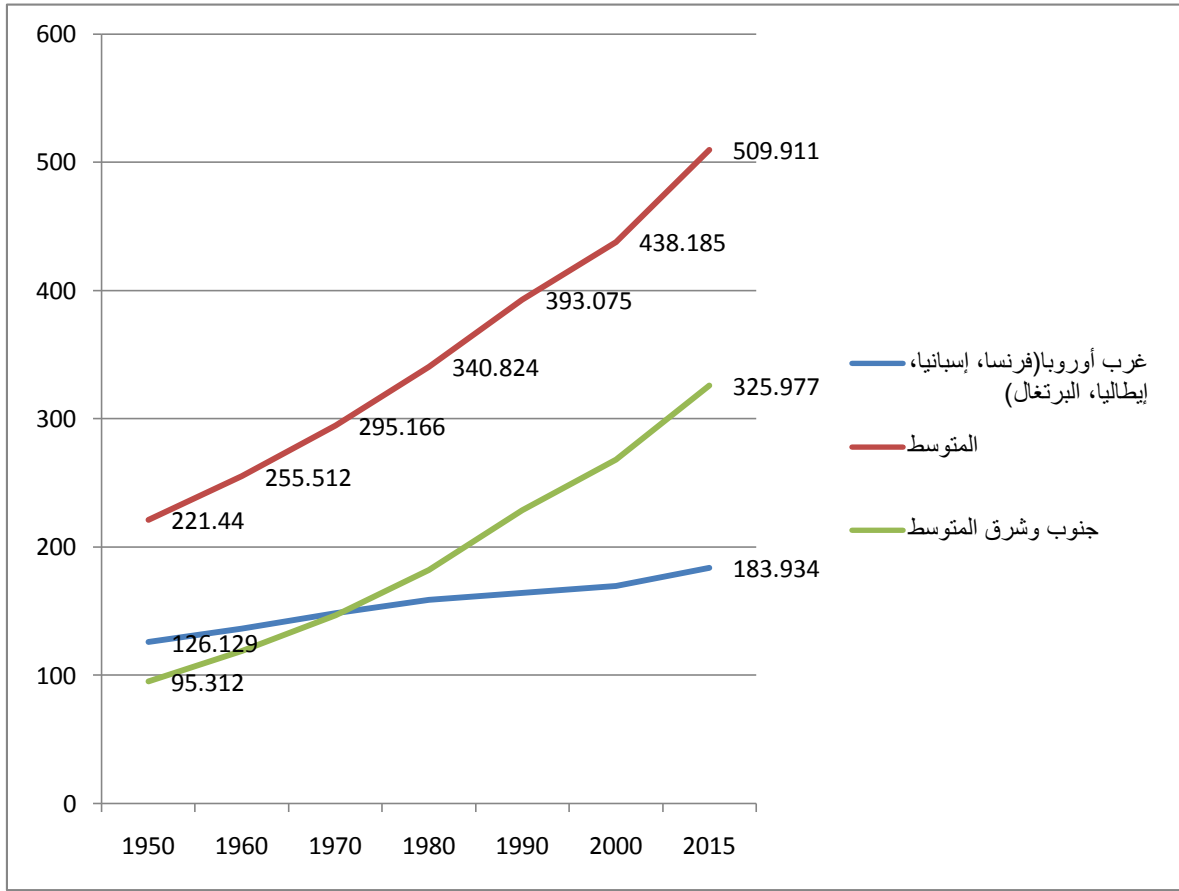
- في منطقة جنوب وشرق المتوسط توجد أكبر نسب نمو الفئات العمرية النشيطة، حيث ترتفع بمعدل 3,7 مليون شخص سنويا، مع ارتفاع نسب الطلب على التشغيل، وفي نفس الصدد تسجل دول منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا أكبر معدلات البطالة عالميا خاصة في فئتي النساء والشباب⁽¹⁾.

- ينخفض عدد سكان، نتيجة العديد من العوامل كالتخفيض الخصوبة، تدني معدلات الإنجاب (1,6 طفل للمرأة سنة 2030)، وتدني معدل التعويض الجيلي (1,2) طفل، حيث تواجه أوروبا شيخوخة خاصة في: إيطاليا، ألمانيا، بلجيكا، السويد وفنلندا، حيث مثلت أوروبا نسبة 22% من سكان العالم سنة 1950، ويتوقع أن تنخفض إلى 8% سنة 2030⁽²⁾.

¹⁾ Guillaume Alméras Et Cécile Jolly, "Méditerranée 2030 panorama et enjeu géostratégique ; humains et économiques", **institut de prospective économique dans le monde méditerranéen**, avril 2009, p.129.

²⁾ Ibid, p.133.

شكل رقم 2: تطور نسب سكان منطقة المتوسط (1950-2015)



المصدر: بالتصرف عن:

Vittorio Daniele And Paola Malanima, "Trends in mediterranean inequalities 1950-2015", University Magna Graecia of er 78324, april catanzaro, **working paper** 2016, p.5.

2-عناصر التوافق والانسجام

سنقوم فيما يأتي بتقديم أهم المؤشرات الإيجابية بخصوص إمكانيات دفع التعاون البيئي لدول منطقة

المتوسط من خلال الوقوف عند أهم التحديات المشتركة.

أ-المشاكل البيئية: تعتبر قضايا البيئة ومشاكل التغير المناخي من التهديدات الأمنية الشاملة ذات الأبعاد العالمية والمستقبلية، مع ذلك فهي لا تحظى بالاهتمام الكافي من طرف الدوائر الرسمية لصناعة القرار، بالإضافة إلى المشاكل الأمنية المرتبطة بتطور تكنولوجيا الدمار بمختلف أنواعها، وإفلاتها من الرقابة على المستوى العالمي.

تشكل البيئة في الحوض المتوسطي العامل المشترك لكل الدول المحاذية له، فالمشهد الطبيعي المتوسطي الذي انعكس على ثقافة العيش للشعوب المشاطئة له قد أضحي مهدداً، وحسب تقرير تم إعداده عام 1990 – فإن منطقة غرب المتوسط أكثر من غيرها – تعاني هشاشة في الأنظمة البيئية، وتضاعفا متزايداً للمساس بالبيئة، مما يهدد الأصناف النباتية والحيوانية البرية والبحرية، نتيجة للتضاعف الفوضوي للنشاطات الاقتصادية على طول السواحل.

حسب ما ورد في برنامج الأمم المتحدة للبيئة يمكننا حصر أهم المشاكل المؤثرة في التنوع البيولوجي والبحري والساحلي في التلوث، ندرة المياه العذبة، الحتباس الحراري،...⁽¹⁾:

ب- تنامي التطرف: تعاني دول المنطقة المتوسطية من تنامي ظاهرة التطرف المرتبط بأعمال العنف سواء في بعده السياسي أو الديني، وقد يتجه البعض إلى ربط هذا الأخير بالمنطقة جنوب متوسطة، بينما يقصر سابقه على دول أوروبا، لكن المسألة أكثر تعقيداً مما قد تبدو عليه للوهلة الأولى، حيث يترابطان بشكل كبير، ويمكن تقديم مثال جد بسيط على ذلك: فتنامي الخطابات العدوانية والعنصرية للأحزاب اليمينية المتطرفة في المجتمعات الأوروبية يقدم صورة جد قائمة عن المسلمين في أوروبا والعالم، مما يغذي مشاعر الكراهية والإسلاموفوبيا، ويزيد بدوره من المعاملات الإقصائية للآخر، والتي تتفاعل بدورها مع جملة من العوامل الأخرى مما قد يدفع إلى تبني سلوكات عنيفة ومتطرفة.

عموماً يمكن إيجاز مجموعة من المتغيرات الدافعة نحو التطرف والعنف⁽²⁾:

* ضعف القدرات الدفاعية للدول وتدهور الأوضاع الأمنية سواء داخليا أو في الجوار الإقليمي.

* أدوار وتأثيرات مرتبطة بإستراتيجيات جيوسياسية عالمية.

* معاملة الجاليات في دول الإقامة بطرق مسيئة مع الإقصاء الاقتصادي ومحدودية الفرص.

⁽¹⁾ برنامج الأمم المتحدة للبيئة، برنامج العمل الاستراتيجي للمحافظة على التنوع البيولوجي بالإقليم المتوسطي، خطة عمل البحر المتوسط، مركز الأنشطة الإقليمية المتمتعة بحماية خاصة (برنامج الأمم المتحدة للبيئة)، ص.ص. 08-19.

⁽²⁾ Amel Boubkeur, "Les facteurs idéologique et religieux de l'extrémisme violent", **enquête EUROMED**, vol.8, p.03.

ج- الهوية الثقافية والعولمة: تمثل منطقة المتوسط مصنعا حقيقيا للحضارات، رغم المحطات الصدامية في تاريخه، ويمكننا أن نلمس تأثير البحر الأبيض المتوسط بمناخه المميز على أنماط حياة الشعوب المشاطئة، أين تجتمع جملة من الخصائص المشتركة الفريدة التي لا يمكن أن تتواجد في مناطق أخرى: حيث تتشابه الشعوب المتوسطية في أمزجتها (انفعالية، عصبية، مندفعة، فضولية، الضيافة، قبول الآخر...)، ألوان البشرة، أنماط العيش وثقافة الأكل، التسامح الديني (موطن الكتب السماوية)، .. وغيرها.

قد يمثل هذا التميز الثقافي للمنطقة عن غيرها من أقاليم العالم، العامل المحرك في دفع الإدراكات المتوسطية نحو الحذر والوعي الهوياتي تجاه التأثيرات العولمية على الصعيد العالمي، حيث أصبح المشهد الثقافي المتوسطي مهددا بثقافات دخيلة، لذلك: "أصبحت معالجة حالات اللاتقيين من طرف الشعوب المتوسطية مجتمعة مسألة جد ملحة [...] إذن فالحوار بين الثقافات والشعوب المتوسطية يجب أن يذهب إلى أبعد من مجرد التركيز على الآليات التقليدية للتعاون على المستويين الإقليمي والدولي، كما يجب أن تتسم بالخوف المشترك والاحترام والتفهم المتبادلين، وعدم الاقتصاد على الدول والمؤسسات، وإنما بين المجتمعات والشعوب التي تشارك هذه المنطقة"⁽¹⁾.

ثالثا: المقاربة الثقافية الحضارية كآلية لتفعيل التعاون المتوسطي

يواجه الإقليم المتوسطي اليوم جملة من التحديات الكبرى التي أقل ما يوصف عنها كونها حالات لا يقينية تثير مخاوف الشعوب والحكومات على حد سواء⁽²⁾:

- بروز وتكرار الظواهر الجوية المتطرفة نتيجة تغيرات المناخ.
- تهديدات أمنية بيئية، غذائية وطاقوية .
- تحديات هوياتية ثقافية مرتبطة بأنماط حياة السكان نتيجة تأثيرات العولمة الاقتصادية والتطور التكنولوجي.

⁽¹⁾ "Shared identities and cultures in the Mediterranean", centre for administrative innovation in the Mediterranean, p.27.

⁽²⁾ "الشراكات والبحوث بحوض البحر الأبيض المتوسط"، أغروبوليس، مونبوليه، جوان 2011.

(2/8/2018).<https://www.agropolis.fr/pdf>

أثبتت الدراسات النقدية لمختلف مشاريع ومبادرات التعاون والشراكة الأورومتوسطية الهادفة إلى خلق مجال للسلم والأمن والاستقرار في المتوسط انطلاقاً من مسار برشلونة، وصولاً إلى السياسة الأوروبية للجوار ومشروع الاتحاد من أجل المتوسط عدم فعاليتها من عديد النواحي، وتشترك جميع الآراء حول مجموعة من الأسباب وأهمها: الانفرادية الأوروبية في الطرح، اللاتكافؤ في الحوار وعدم احترام الخصوصيات الثقافية والحضارية للآخر في جنوب وشرق المتوسط...

كما أن هذه المبادرات تمثل مقارنة أمن إقليمي بدلاً من كونها مقارنة تعاونية إقليمية، تسعى من خلالها أوروبا إلى مواجهة التهديدات الأمنية وفق منظورها الخاص "إن فكرة إقامة حلقة من الأصدقاء حول أوروبا تفترض أن الهدف بعيد عن كونه نظاماً أفقياً يتفاعل فيه كل طرف على مستوى مساو، بل المقصود هو السعي إلى إقامة نظام حلقات مكرزة، تقع أوروبا في مركزه وتشكل الدول المجاورة أطرافه المحيطة"⁽¹⁾.

في هذا الصدد يمكن التأكيد على أهمية المقاربة الثقافية كميكانيزم جد فعال في تعزيز جهود التعاون الحقيقي، حيث يمكن أن يحقق الحوار الثقافي القائم على الاحترام، والتفهم المشترك عبر التخلص من الإنكار، التجاهل والجهل بخصوصيات الآخر المجاور لنا، قطيعة مع الطروحات والممارسات الصدامية التي طبعها تاريخ التفاعلات بين ضفتي المتوسط، حيث "لا تثير إشكاليات العلاقة مع الآخر ككيان مختلف عنا، مع هؤلاء البعيدين جداً، مع من هم أقرب منا [...] لأنه مع هؤلاء الأقرب منا نتحارب بمرارة أكبر"⁽²⁾.

بطبيعة الحال لا يمكن الحديث عن هوية ثقافية مشتركة في المتوسط بل عن تعدد هوياتي يمثل المكون الأساسي للإرث المتوسطي المشترك، لذلك فالحوار بين ثقافي مجدداً من شأنه تكريس مفاهيم التعايش بين الشعوب، وخلق نوع من الوعي الهوياتي المشترك في إدراك وتحديد التحديات المشتركة كأحد مستويات وأشكال الإقليمية، مما يسمح بتبني مقارنة تضامنية كفيلة بمعالجة التحديات الكبرى.

"في ظل الظروف الصعبة التي تم اختبارها في هذه المناطق - فقد أصبحت مسؤولية مشتركة نتقاسمها جميعاً - لا ينبغي أن نكتفي بتوحيد جهودنا الدبلوماسية فقط وإنما بتجميع المقدرات الشخصية والفردية

⁽¹⁾ زهير بوعمامة، "السياسة الأوروبية للجوار: دراسة في مكون ضبط الآثار السلبية للجوار على الأمن الأوروبي"، مجلة المفكر، العدد الخامس. جامعة بسكرة، ص. 245.

⁽²⁾ Assia Alaoui Bensalah And Jean Daniel, "Dialogue between peoples and cultures in the euromediterranean area", **European commission**, October 2003, p.14.

أيضا في الكفاح لحماية هذا الموروث الذي وصلنا عن طريق الأجيال السابقة، وصف المؤرخ العظيم فيرناند بروديل المتوسط بأنه آلاف الأشياء في الوقت نفسه، ليس بحر واحد بل تتابع بحار، ليس حضارة واحدة بل عديد الحضارات المتموضعة [...] المتوسط ملتقى طرق قديم منذ آلاف السنين، فكل التدفقات التي عبرت المتوسط قلبت وأغنت التاريخ الإنساني⁽¹⁾.

خلاصة: يمكن أن نقف على الأفكار التالية:

- حول المتوسط نشأة وتكونت وتطورت الشخصية الإنسانية من ناحية القيمة بشكل تدريجي وتراكمي ومثالي متكامل، فالإنسان المتوسطي اكتشف الحساب والجبر والفلك كما مارس السياسة في المدينة والإمبراطورية، صاغ المواد القانونية والدكتاتورية، عرف الله والخرافة وبتالي هو مؤهل أكثر من غيره للتخاطب المنطقي والالتزام الأخلاقي والديني في العلاقات والتعاون .

- البيئة السياسية والأمنية في المتوسط تحمل عديد الرهانات بالنظر لطبيعة المهددات خاصة المستجدة منها كالهجرة غير الشرعية والإرهاب والتحديات المناخية، إضافة لاحتوائه لعدد الصراعات المزمنة كالصراع العربي الإسرائيلي، مما يستدعي رصد وتجميع الإمكانيات والمقومات لمواجهة ومجابهة تلك التحديات التي في أغلبها مشتركة كما تؤثر على جهود ومبادرات التعاون.

- إن دراسة المحددات الجيوسياسية والحضارية لمنطقة المتوسط بشكل عام تقودنا إلى رصد جملة من الثنائيات المتناقضة التي تصور مشهدا إقليميا تغطي عليه ملامح التباين والاختلاف إضافة لعناصر التوافق والتعاون، حيث تؤثر التباينات والاختلافات الحاصلة على المستويات السياسية العسكرية، الاقتصادية والاجتماعية الديمغرافية التاريخية والثقافية، على ضرورة دفع واستغلال كل ما من شأنه راب الصدوع وتقريب الرؤى.

- المحدد الحضاري مفصلي في شقه الثقافي والعلمي لتمييزه بالمرونة والشمولية والفهم من كل الوحدات و الفواعل المتوسطية، وبتالي يمكن الرهان عليه بعد تحليله لدفع التعاون البيني بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

¹⁾ Erato Kazakou Marcoulis and Jean Pierre Mazery, "Protection and conservation of cultural heritage in the Mediterranean; a common responsibility", forum organized by the ministry of foreign affairs of the republic of Cyprus, November 22nd and 23rd 2012, p.86.

-العولمة الحضارية علامة متوسطة مسجلة بامتياز لم تقلد ولم تحدث في باقي المناطق التي شهدت نمط أو تعاقب حضاري، وبتالي فنموذج المتوسط وطبيعة شخصيته الحضارية ضمن في مجالات زمنية سابقا السلام وهو بالتقريب ما يراهن عليه اليوم على اعتبار أن الجسور الحضارية موجود ولم يبقى إلا عبورها للوصول للتجاوب والتخاطب.

قائمة المراجع :

- 1-بروديل فرناند ، ترجمة: مروان أبي سمرا، المتوسط والعالم المتوسطي، الطبعة الأولى، بيروت: دار المنتخب العربي، 1993.
- 2-لاكوست إيف ، ترجمة: زهيرة درويش جبور، الجغرافيا السياسية للمتوسط، الطبعة الأولى، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2010.
- 3-هلال علي الدين و مسعد نيفين ، النظم السياسية العربية؛ قضايا الاستمرار والتغيير، القاهرة: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000.
- 4-برنامج الأمم المتحدة للبيئة، " برنامج العمل الاستراتيجي للمحافظة على التنوع البيولوجي بالإقليم المتوسطي، خطة عمل البحر المتوسط " ، مركز الأنشطة الإقليمية المتمتعة بحماية خاصة (برنامج الأمم المتحدة للبيئة).
- 5-بوعمامة زهير ، "السياسة الأوروبية للجوار: دراسة في مكون ضبط الآثار السلبية للجوار على الأمن الأوروبي"، مجلة المفكر، العدد الخامس. جامعة بسكرة.
- 6-"الشراكات والبحوث بحوض البحر الأبيض المتوسط"، أغروبوليس، مونبوليه، جوان 2011.
- [https://www.agropolis.fr/pdf\(2/8/2018\).](https://www.agropolis.fr/pdf(2/8/2018).)
- 7-Amel Boubkeur, "Les facteurs idéologique et religieux de l'extrémisme violent", **enquête EUROMED**, vol.8.
- 8-Guillaume Alméras Et Cécile Jolly, "Méditerranée 2030 panorama et enjeu géostratégique ; humains et économiques", **institut de prospective économique dans le monde méditerranéen**, avril 2009.
- 9-Mohieddine Hadri, "La Méditerranée et l'avenir du dialogue Nord –Sud. comité Méditerranée",Bruxelles, 27-28nouembe 2008.

- 10-Alaoui Assia Bensalah And Jean Daniel, "Dialogue between peoples and cultures in the euromediterranean area", **European commission**, October 2003.
- 11-Erato Kazakou Marcoulis and Jean Pierre Mazery, "Protection and conservation of cultural heritage in the Mediterranean; a common responsibility", forum organized by the ministry of foreign affairs of the republic of Cyprus, November 22nd and 23rd 2012.
- 12-Guillaume Alméras et Cécile Jolly, "méditerranée 2030 ; panorama et enjeu géostratégiques", **institut de prospective économique dans le monde méditerranéen**, avril 2009.
- 13-"Shared identities and cultures in the Mediterranean", **centre for administrative innovation in the Mediterranean**.
- 14-Vittorio Daniele And Paola Malanima, "Trends in mediterranean inequalities 1950-2015", University Magna Graecia of er 78324, april catanzaro, **working paper** ,2016.